نشوان زيد علي عنتر

الحاضرون في الظل

الكادحون في الظل

(رواية)

بقلم :

نشوان زيد علي عنتر

2012م

الكادح الأول

بكر التميمي

السائق الأمين

أطلت النسمات الأولى للفجر الوارف بظلاله المنير على ثغر اليمن الباسم عدن و إن كان على إستحياء خلال هذا الصيف البارد دون إن يوقظ بطلنا الهمام و الصحفي المقدام إلى حد ما ماهر اليعفوري من نومه الثقيل جراء قضائه ساعات طوال في إعداد تحقيقه الصحفي حول الكادحين في الظل الذين يخدمون الناس بأعمالهم الخيرية دون مقابل أو سعيا وراء الشهرة عكس جاره النشيط بكر التميمي الذي سرعان ما أنهى وجبة إفطاره المتواضعة من جبن مبشور و بيض مقلي و كأسا فاخرا من القهوة اليمنية بمذاقها العبق بمسك الأجداد و روحهم الطاهرة (إتجه نحو سيارته المتواضعة لتدويرها بادئا معها يوما حافلا من السعي الشاق وراء لقمة العيش وسط هذه الأزقة الشعبية الفقيرة في عاصمة البلاد القديمة و الجديدة بآن معا دون أن يحدث أي تحول يذكر في جاذبيتها المغرية بالنسبة للسائح الوافد المبهور بغموضها الساحر المحيط بجبالها البركانية الجرداء و عماراتها و شوارعها البراقة و ناطحات سحابها الزجاجية الناصعة البياض على الطراز السائد

في الإتحاد السوفيتي و اوروبا الشرقية بعدما أقدمت حكوماتها الشيوعية زرافات و وحدانا على الإستثمار في جنة الشيوعية الوحيدة في شبه الجزيرة العربية آنذاك منذ منتصف سبعينات القرن العشرين على كافة الأصعدة بلا حياء أو خجل .

و قد صادف أن أضحى صاحبنا ماهر أول الزبائن الكرام لهذا السائق الكهل في الخمسين من عمره ليستهل من خلاله عمله المضني بهمة و نشاط كما لو كان شابا في سن الحادية و العشرين حتى بعدما طار غرابه إلى غير رجعه و تمكن من تزويج أولاده الأربعة و بناته الثلاثة جميعا و يمد في عمره ليرى أحفاده من صلبهم و ترائبهم على حد سواء.

قدم من محافظة شبوة إثر أحداث ١٩٨٦م الدامية حيث كان يعمل هناك سائق حافلة تابعة للمؤسسة للنقل البري و الحديدي ، و ما إن أستقر به المقام في عدن حتى إشترى سيارة أجرة محلية الصنع نوع (قتبان) ليعمل سائقا عليها دون أن يغير ذلك البتة من خصاله أو أخلاقه الحميدة من إبتسامة زاهية مرسومة على شفتيه الخشنتين في وجه الآخرين و إخلاصه الشديد في عمله الدؤوب المتمثل في إيصال زبائنه الكرام و الغلاظ الشداد على حد سواء بصدر رحب إلى

الأماكن التي يريدونها بالتمام و الكمال مقابل أجره المعتاد دون زيادة أو نقصان و وفق ما يحدده عداد سيارته الذي يتحرى عنه بإستمرار ليضمن دقته و أمانته ، فضلا عن إلتزامه بخطه المرسوم له دون القيام بإلتفافات جانبية عليه بحجة إختصار المسافة حتى لا يخدع الركاب و يظلمهم كما يتصرف غيره من السائقين الذين لا هم لهم سوى جني المال فحسب بأي وسيلة كانت حتى و لو على حساب أخلاقهم أو إخلاصهم في العمل ، إضافة إلى إلتزامه الحريص بقواعد السلامة المرورية و حتى يضمن حياته و حياة من يصعدون سيارته تماشيا مع إشارات المرور السائدة في بلاده و مع ما قاله له أحد ركابه من السياح الفرنسيين (لا تسرع فأنا مستعجل) ، ما حاز على إعجاب زملائه و جيرانه و الناس المحيطين به ، سيما و أنه لا يقوم بهذه التصرفات سعيا وراء درع السائق المثالي أو إرضاء للدولة بل لأنه إعتاد عليهن مذ كان والده دليلا في الصحراء يقود الرحالة و عابري السبيل على ظهور جماله الذي كان يقتدي به و بأقواله المأثورة و لاسيما حكمته الراسخة في ذهنه حتى يومنا هذا (كن مخلصا في عملك تكسب الخيرات من جرائه ، فإن منحك إخلاصك المال صرت غنيا شريفا ، و إن لم يمنحك المال صرت أكثر

شرفا ، و نحن يا ولدي الشرف بالنسبة لنا هو أغلى شئ في الوجود إذا خسرناه خسرنا كل شئ)

يركب بعد ساعة من خروجه من منزله الفخم بالتواهي أحد الزبائن المرفهين البادية على ملامحه البدينة مظاهر النعمة و الترف سيارة بكر الذي أدرك من الوهلة الأولى و بلمح البصر أنه رجل أعمال يستورد و يصدر الشعير حيث طلب الأول منه توصيله حالا إلى شارع القمندان القريب من ميناء الزيت القديم بالمعلا ، و ما إن وصل إلى هناك حتى نسي حقيبته المليئة بالنقود من فئة الدولار كان أحوج إليهن لتمرير صفقاته الملحة في الحال ، فحاول بكر تنبيهه إلى الحقيبة و لكن دون جدوى ليبحث عن الرجل مقتفيا أثره في كل مكان من أرجاء بلاده الشاسعة بجبالها و سهولها و صحاريها بغية إعادتها تحمل خلالها صعوبات جمة تمثلت في ضغوط عائلته الفقيرة و حاجتها المآسة لتحسين وضعها المادي و معاملة الشرطة السيئة نحوها بعدما أعمت الشكوك و سوء الظن بصيرتها و إتهمته بسرقتها مرارا و تكرارا دون وجه حق ..... الخ .

وقف ساعات طوال واقفا أمام دار الرجل المذكور سلفا أدت إلى سقوطه أرضا من شدة الإرهاق و التعب قضاهما تحت

المطـــر الغزيـــر و الـــثلج القـــارس و الريـــاح العاتيـــة بحثـــا عنـــه فـــي مشـــهد بطـــولي قـــد يبـــدو ســـاذجا لـــدى العامـــة مـــن الوهلـــة الأولـــى إلا أنـــه فـــاق بطولـــة أبنـــاء جلدتـــه الفـــدائيين الـــذين واجهـــوا بصـــدورهم العاريـــة المســـتعمر البريطـــاني البغـــيض حيـــث رفـــض تســـليم الحقيبـــة إلأ لصـــاحبها المتثاقـــل بخطواتـــه الملبيـــة لندائـــه العاجـــل بإســـتلامها الفـــوري لهـــا و المـــذهول مـــن أمانتـــه رغـــم ضـــآلة جســـمه النحيـــل القامـــة و لكنـــه بقـــوة عشـــرة رجـــال أشـــداء بعـــدما ســـلمه حقيبتـــه رافضـــا أن يأخـــذ قرشـــا واحـــدا منـــه مكافـــأة علـــى مـــا صـــنع ، ثـــم يمـــوت علـــى إثـــر ذلـــك فـــوق ســـريره الخشـــبي بـــين جـــدران منزلـــه المتواضـــع فـــي الحـــادي و العشـــرين مـــن أبريـــل عـــام ١٩٩٥م و يحمـــل علـــى أكتـــاف ســـكان حافتـــه وســـط هـــدير صـــلواتهم الحزينـــة و ولولـــة نســـائهم و زوجتـــه و بناتـــه يختـــرق عنـــان الســـماء المفجوعـــة بغيومهـــا و طيورهـــا و شمســـها الســـاطعة فـــي كبـــدها الشـــفاف علـــى رحيلـــه عنهـــا بعـــدما علمهـــم جميعـــا بـــأن الأمانـــة فـــي كـــل شـــئ حتـــى فـــي الأكـــل و الشـــرب و العمـــل و العلـــم و الأخـــلاق كنـــز لا يفنـــى يظـــل لصـــيقا بصـــاحبه إلـــى يـــوم الـــدين يرفـــع مـــن مقامـــه إلـــى أعلـــى حـــد مـــن الشـــرف و التكـــريم الإلهـــي لـــه علـــى الـــرغم مـــن أن لا أحـــد إهـــتم بمـــا قـــام بـــه مـــن عمـــل يشـــرف الإنســـان اليمنـــي المعتـــاد علـــى خدمـــة النـــاس رغـــم تغيـــر الـــزمن و صـــعوبة

الحيـــاة اليوميـــة الثقيلـــة علـــى كاهلـــه ، بـــل إنهـــم لـــم يتفضـــلوا مـــن تلقـــاء أنفســـهم نشـــر خبـــر نعـــي عنـــه حتـــى ليـــواروه الثـــرى فـــي الخفـــاء و يظـــل حبـــيس لحـــده المظلـــم و معروفـــه العظـــيم حيـــال مـــن ساعدهم دون مقابل يرجوه منهم .

الكادحة الثانية

سناء الصالحي

أم أخيها الكبير

لم يمض على وفاة بكر التميمي سوى ثلاث أسابيع حتى إنشغل ماهر بشخصية أخرى حازت على إعجاب الناس بأخلاقها الحميدة و أعمالها الخيرة في الظل بعدما عجز عن الدفاع عن الأول و رد الإعتبار له حيا كان أم ميتا حيث ما لبث أن إنتزع قلمه الازرق الجاف من صدر علبة أقلامه الغائر في قلب طاولته المهترئة و بدأ بخط السطر الأول من مقاله القادم في صحيفته الدرب المضيء عن سناء الصالحي المعروفة لدى من حولها بأم أخيها ! (بما أن سيدتنا البتول لنساء العالمين فاطمة الزهراء رضوان الله عليه لقبت بأم أبيها رسولنا الكريم (ص) جراء إهتمامها المتزايد به إثر وفاة والدتها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها خلال حصار قريش لبني هاشم في مكة المكرمة عام ٦١٤م ما إنطبق عليها عقدة سمر الحميرية التي أحبت أبيها حب العبادة لدرجة أنها لم تتزوج قبل و بعد وفاته حتى قضت نحبها حتف أنفها تخليدا لذكراه العطرة أو أوديب الإغريقي ملك طيبة والد أمه قلبا و قالبا و من أجلها فقأ عينا أبيه الذي قتلها أمامه قبل أن يفقأ عيناه

حزنا عليها ، لكن أن تكون الأخت الصغيرة هي الأم الحنون لأخيها الأكبر فهذا لم يكن في الحسبان رغم ورودها مرارا و تكرارا في سيرتي الشاعرة الجاهلية الخنساء مع شقيقيها صخر و ضرغام و شريفة الهجان مع شقيقها الجاسوس المصري الشهير رأفت الهجان ، إلا أن بطلتنا لهذا الأسبوع سناء الصالحي تميزت عنهما بحبها و حنانها الطاغيين نحو شقيقها الكبير مناف يشبه إلى حد ما دفاع الأميرة السبئية شوف المذكورة في أدبنا اليمني القديم المستميت عن أخيها يدع إل حيث الأم الصغيرة أو الثانية (كما كان يرددهما مناف في أكثر مناسبة و لاسيما بعدما فجع بوفاتها المفاجئة و هي في ريعان الشباب دون أن يتجاوز عمرها الخامسة و العشرون تاركة ولدين يتيمين و زوج أرمل مكلومين برحيلها عنهم جراء مرض السرطان بمستشفى التضامن الدولي في تعز بالثاني عشر من أغسطس عام ١٩٩٨م) لبطل العالم في الدراجات النارية أعوام ١٩٩٨م و ٢٠٠١م و ٢٠٠٤م ضحت بروحها و مالها و شرفها من أجله دون مقابل في وقت تخلى عنه الجميع و لما أستطاع أن يصنع شيئا مما ذكرناه لولا دعمها الدائم و رعايتها الكبيرة بغاية الحفاوة له .

ولدت سناء فارس مقبل الصالحي في حي بير باشا بمدينة تعز في الثاني و العشرين من مايو عام ١٩٧٤م (و هو العام ذاته الذي شهد ميلاد الفنان الكبير ناصر المريسي) كآخر العنقود من بين ثمانية أشقاء (أربعة ذكور و أربعة إناث من بينهم شقيقها مناف المولود قبلها بثلاثة أعوام) كان والدها قائدا سابقا في الجيش النظامي برتبة فريق أول حيث إنخرط في صفوفه عام ١٩٦٠م بعد تأسيس دولة اليمن الإتحادية مباشرة رغم إنضمامه المباغت إلى صفوف المقاومة المسلحة ضد المستعمر البريطاني إثر إندلاع ثورة الرابع عشر من أكتوبر من عام ١٩٦٣م ليعود إلى صفوف الجيش مجددا مكللا بالنصر و الإفتخار بعدما نالت بلاده بفضله و بفضل زملائه المقاومين الأشاوس شرف الإستقلال عام ١٩٦٧م ليتم تنصيبه على إثر ذلك قائدا للفرقة الثانية عشرة في محافظة الجوف على الحدود اليمنية – السعودية ليخوض في سبيلها حربا طاحنة ضد الجار السعودي دامت ثمانية أعوام عجاف (١٩٦٨–١٩٧٦م) لتكافئه السلطات الرسمية بتعيينه رئيسا لسجن الأحمدي السئ السمعة في تعز و الذي أغلق عام ١٩٩٢م قبيل تقاعده بثلاثة أعوام ، ما يبرهن لنا و لو بلمحة بسيطة بأن والدها كان رجلا قاسيا و عنيفا و فظا غليظ القلب إنفض

أولاده من حوله تجنبا لقسوته الذي لا يطاق و لا سيما سناء التي نالت النصيب الأوفر من بطشه الشديد حيث كان يجلدها بالحزام و يصفعها مرارا و تكرارا أسوة ببقية إخوتها الذكور و الإناث تماشيا مع القول المأثور السائد لدى الناس رغم حكمته السخيفة للغاية (ظلم عام عدل تام) لولا تدخل أخيها مناف لحمايتها منه بتحمل ضرباته و عنفه المستطيرين عوضا عنها لما تحمل جسدها الرقيق آثارهما الجسيمة و لفارقت الحياة و هي بعمر الزهور ، سيما و أنها عانت في سن مبكرة من تخوخ للعظام في ذراعيها مرده نقص حاد في الحديد و الكالسيوم ، فضلا عن إن والدها لن يعاقب عما إقترفه بحقهم من جرائم يندى لها الجبين و هو الذي عاث في أرض بلاده فسادا بظلمه و جبروته ردحا من الزمن بإعتباره قائدا عسكريا رفيع المستوى مسئولا كبير في المكتب السياسي للحزب الإشتراكي الحاكم قبل محاكمته ضمن قائمة المغاوير الحمر[1] عام ١٩٩٤م .

ظل مناف يحميها من مضايقات و تحرشات الشباب الفاسد داخل الجامعة أو مضمار سباق الدراجات النارية و تحديدا زميله في المرحلة الثانوية حسان الأغبري الذي كان ينافسه في

[1] مجموعة من المتهمين المنتمين للحزب الإشتراكي الحاكم حاولوا الإطاحة بزعيمه رئيس الجمهورية علي عبدالله صالح بإنقلاب عسكري سرعان ماتم إخماده عام ١٩٩٤م (المؤلف) .

شغفه العارم على هذه الرياضة الجنونية ، إلى جانب حبه الشديد بسناء و رغبته الجامحة بالزواج منها و لو بالقوة ، فضلا عن أنه شقيق زميله في فرقة النمور الوردية مازن مما جعلها تحب أخيها الأكبر منها بثلاث سنوات حب العبادة ، فظلت تساعده في كل صغيرة و كبيرة و تساعده في دروسه في حال إذا لم يستوعبها أو يفهمها و تشاركه همومه و مشاكله بل تساهم في حلها بحلولها المبتكرة من قبل عقلها ، كما أنها كانت تشجعه على الاهتمام بدراسته و مستقبله الرياضي و لو على حساب مستقبلها أحيانا ، و كانت تحببه في أبيه و أمه و إخوته و ترجوه إلا يغضبهم و لا يسيء الأدب معهم حتى و لو جرحوه أو أذوه و أذوها فهم في النهاية يظلون أهله الذي لا غنى له عنهم بل و الأغرب من ذلك كانت تطلب منه إلا يعادي حسان الأغبري و يحقد عليه على الرغم من انه آذاها و كادت أن يتزوجها رغما عنها و بقوة والدها و ضغطه و ذلك لأنها لا تريد أن تراها أنسانا حقودا منتقما ممن أساؤا إليه و لاسيما انه استغرب تصرفها تجاه احد الشحاذين عندما حاول إبعاده من طريقهم أثناء تجوالهم في احد حارات تعز القديمة حيث أعطته مصروفها اليومي كاملا مبررة تصرفها ذلك أن الرجل عجوز و مسكين

جـدا علـى الـرغم مـن انـه اخبرهـا حقيقـة الرجـل بأنـه مـن عناصـر المخـابرات الحديديـة فأجابتـه إجابـة عجيبـة أفحمتـه لبرهـة مـن الوقت

(حتـى لـو لـم يكـن شـحاذا و كـان ضـابط شـرطة متنكـر، فهـذا المبلـغ مـن المـال سيحسـن مـن وضـعه المـالي، ألـيس كـذلك يـا أخـــي ؟)

فمنـاف مـن وجـة نظرهـا إنسـان طيـب و ودود ذو قلـب صـاف خـال مـن الضـغائن و الأحقـاد و يمتـاز بدماثـة أخلاقـه و روحـه المرحة و يجب أن يبقى بنظر الناس هكذا .

بينمـا كـان منـاف علـى كرسـي الأرجوحـة فـي باحـة منزلـه و مـن حولـه ولديـه إبـراهيم و عفيـف إضـافة إلـى أروى ابنـة شـقيقته الراحلـة فـؤاد يـروي مـن سـيرتها و زوجتـه أمـال الواقفـة قـرب شـجرة الكـرز الورديـة اللـون تسـترق السـمع عـن طريقتهـا فـي قـول النصـائح و الملاحظـات المفيـدة لـه حيـث كانـت تلقيهـا بطريقـة مؤدبـة و رقيقـة و ترجـوه أن يطبقهـا حتـى تجعلـه أنسـانا جيـدا و لاسـيما عبـر لعبـة الطاولـة أو الكيـرم ، فـإذا فـازت طبـق نصـائحها فـي مسـالة مـا و إذا خسـرت لا يطبقهـا و كلاهمـا كـان يقبـل بالنتيجـة دون اعتـراض أيـا كانـت فحواهـا ، إضـافة إلـى انـه روى لهـم أن حبهـا الشـديد لـه لـم ينسـها حبهـا لوالـديها و أشـقائها

الآخرين فكانت تزورهم و تخفف عنهم ألامهم إذا حزنوا و تفرح لهم إذا فرحوا ، لكن معزة شقيقها مناف تظل هي الأغلى على قلبها منهم لدرجة إنها كانت تتحمل العقوبة نيابة عنه مهما كانت درجة قسوتها و عندما تزوج أمال كانت تبذل كل جهدها لحل أية مشاكل تنشا بينهما بطريقة تجعلهم لا يفكرا بالطلاق نهائيا على الرغم من أن آمال كانت تغير من شدة تعلق زوجها بها قبل أن تحبها و ترعاها أثناء مرضها و وجودها بالمستشفى ، و حتى عندما أدمن مناف المخدرات من شدة يأسه المفرط الناجم عن رفض الجهات المعنية تسليم مستحقاته المالية له على اثر فوزه ببطولتي آسيا للدراجات النارية في اليابان عام ١٩٩١م و العرب للدراجات النارية في سوريا عام ١٩٩٢م ثم فوزه بالمركز الثالث لبطولة العالم بالمكسيك عام ١٩٩٢م إضافة إلى انفصاله عن زوجته آمال عام ١٩٩٣م قبل أن يتزوجها مرة أخرى بجهود أخته عام ١٩٩٧م و أيضا حرمانه من بعثة دراسية للماجستير على حساب جامعة تعز التقنية إلى المانيا بسبب موقف احد الأساتذة الجامعيين منه عام ١٩٩٣م وقفت إلى جانبه حتى أخر نفس في حياتها إلى أن شفي تماما من الإدمان في وقت تخلت أسرته بمن فيهم إخوته و أبيه و أمه عنه و تبروا منه .

و قد ذكر مناف الصالحي في لقاء بث على قناة إي أف أم اليابانية على اثر فوزه بلقب العالم للدراجات النارية للمرة الثانية باليابان عام ٢٠٠٠م تفاصيل هذه المرحلة :

(لقد كانت مرحلة عسيرة و حساسة بالنسبة لي ، كنت أدمن كافة أنواع المخدرات هيروين ، كوكايين ، حبوب هلوسة ، حشيش و غيرها و كدت أموت بسببها لأنها المرة الأولى التي أجربها في حياتي و لم أكن أبالي بذلك علّه يخلصني من عذابي الرؤام هذا و لاسيما من جرائه كنت أقوم بأشياء غريبة لا تليق بي بتاتا ، كنت أنام بالقرب من براميل القمامة و استلقي على الشوارع شحاذا شريدا كسيرا جعلت غيري من الشحاذين يرثون لحالي التي آلت إليها و أصبحت زائرا دائم لمخافر الشرطة بمدينة تعز لمدة أسبوع كامل جربت سجونها العفنة و هراوات ضباط الشرطة و قمعهم الشرس دون أن يتدخل والده لإنقاذه من ذلك ، إضافة إلى تخلي جميع أفراد عائلتي و أصدقائي و زملائي و زميلاتي و لاسيما اللائي كن معجبات بوسامتي في الجامعة و رفاقي في فريق النمور الوردية ما عدا مازن الأغبري و عدوي اللدود حسان و الذي أجهش بالبكاء عندما رأى حالتي المزرية و هو يضربني بكل ما أوتي من قوته صارخا (هذا ليس مناف الصالحي الذي كان يلقبونه

بالجبل المتحرك في قوته و نشاطه و هزمني في أكثر من موقعة و مناسبة و مباراة جرت بيننا) و إخوتي ما عدا أختي الصغيرة سناء الصالحي التي لولاها لما عرفت طعم الأمل و السعي إلى الحياة و البدء بالتفكير بمستقبل أكثر إشراقا ، فلقد بذلت جهودا جبارة لانتشالي من هذا المستنقع العفن الذي أوقعت نفسي فيه ، فأخذتني إلى البيت و تغير ملابسي و تنظفني و حتى كانت تحلق ذقني و أن كانت حلاقتها سيئة نوعا ما لأنها لم تعتد على وضع كهذا و تمسح بشعري و ترقيني و أحيانا تغني لي لكي أنام فاخر صريع نعاسي الشديد كما لو كنت طفلا صغيرا و هي أمي ،،،، و فعلا كنت أناديها أمي حتى ،،، اهئ اهئ اهئ ، حتى بعد وفاتها ،،،، تصور ؟ أنها كانت تجلس أياما و ليالي دون أكل و نوم بقربي و إنا أتعالج من الإدمان في مستشفى ابن الهيثم المركزي متحملة كلام الناس عنها و تهديد زوجها بالطلاق إذا استمرت في مقابلتي أو استقبالي في المنزل أو أي مكان أخر تلتقيني به وأهلي الذين تبرؤوا منها بعدما أقنعتني بصعوبة بذلك تدعو و تصلي بجواره دون أن يوقف دموعها حد في موقف أذهل القائمين على المستشفى و العاملين فيه و حتى المرضى منتظرة شفائي بفارغ الصبر ،،،،، و عندما حاولت العودة إلى

الإدمان لأني لم استطع الالتحاق بالجامعة و فشلت في إثنائي عنه قدمت بعضا من الهيروين الذي كان يخبئه في درج ملابسه قائلة له (تفضل ،،،،، و لكن قبل أن تعود إلى هذا السم القاتل ، أيرضيك اسلم نفسي للشرطة ؟)

(تسلمي نفسك للشرطة ؟! لماذا ؟!!)

(بتهمة إعطائك هيروين وراضية، تعالجت من الإدمان ، و هذا جرم يعاقب مرتكبه بالسجن و لاسيما أن هذا الجرم ارتكبه في حق من ؟ في حق أخي الكبير و قرة عيني و الذي سهرت الليالي من اجل أن يشفى من علته و يبدأ حياة جديدة و مستقبلا مشرقا ؟ ، أيرضيك أن اقبع في السجن بعيدا عنك و عن زوجي و أولادي ؟!! إذا كان ذلك يرضيك فانا راضية ، و ما تأمر به فانا طوع بنانك ، تفضل)

خجلت من نفسي و حماقتي و عدم احترامي لمشاعر الآخرين و حبهم المتزايد نحوي فقذفت بالهيروين إلى سلة المهملات و احتضنت أختي بكل ما أوتيت من وجدان و مشاعر جياشة تصب إلى جسدها بردا وسلاما حنانا لا مثيل له ذكرني بمشهد مماثل حدث في عرسها عندما أتيت إليه بناء على طلبها الملح و رغم استهجان والديها لوجودي باعتباري مدمن مخدرات لطخ سمعة العائلة تحتضنني فرحانة جزلانة بقدومي

و كأني أنا العريس لا زوجها في مشهد فريد و مؤثر من نوعه لم تتحملنه صديقاتها و قريباتها من جرائه فانفجرن في البكاء رغم استهجان أهاليهن لهن على ذلك)

و تذكر مناف أيضا كيف انطلق بسيارته مسرعا سرعة جنونية لا تطاق حاملا أخته المريضة سناء بعدما أغمي عليها من اشتداد المرض الناتج عن سرطان المخ و كانت زوجته بجوارها تخفف عنها الآلام لإسعافها ، و عندما طواها الموت بعد عملية جراحية ناجحة انفجر بالصراخ العابقة بمرارة الفراق الصعب عنها لدرجة ظل مدة أسبوع بأكمله مع جثتها داخل ثلاجة الموتى قبل أن يخرجه شقيقه الأكبر ادهم منها بشق الأنفس ، و ظل على هذه الحال مدة أسبوعين قبل أن يستعيد وعيه و يعود إلى المستقبل المشرق الذي رسمته سناء له فحاز على الماجستير و من ثم أستاذا في الجامعة ليترك عمله في مطعم ماكدونالد الذي عمل فيه بناء على اقتراحها ليبدأ من الصفر ثم فوزه ببطولة العالم للدراجات النارية ثلاث مرات دون أن ينسى ذكراها المحفورة في قلبه و عقله ابد الدهر .

الكادحة الثالثة

وفاء الجليلي

(١٩٨٠– ٢٠١١م)

روح التسامح و الخير الراقي في جسد فتاة يافعة

هكذا وصف ماهر نجمته المفضلة وفاء الجليلي التي يعشقها بلا حدود إلى حد أنه إنشغل بمقاله القادم عنها على حساب إرتباطاته الأخرى بمن فيها المشاركة في تغطية القمة العربية المنعقدة في عدن الصيف الماضي (اشتهرت عند الجماهير العربية و اليمنية بلقب سندريلا الشاشة اليمنية أسوة بنظيرتها سعاد حسني (١٩٢٣– ٢٠٠١م) و أن كانت قد فاقتها طيبة و خلقا ليس لها نظير إضافة إلى احترافها ادوار المرأة الطيبة و المنكسرة و المسكينة بطريقة جعلت جيوشا من الجماهير العربية و التركية و الأرجنتينية تحبها حب العبادة لأنها كانت تؤديها بمنتهى الصدق و الإخلاص دون تزييف أو خداع لهم باعتبارها سلوكيات و أخلاقا صميمة فيها مذ أن تركت تركيا عام ١٩٩٠م إلى وطنها اليمن على اثر حادثة محاولة قتلها و خطفها على يد زميلها في مدرسة نجيب فاضل الثانوية بديار بكر الارمني الأصل جنكيز ارتان و التي

إلى الآن لا تزال تحمل نفسها مسئولية مقتله على يد الشرطة بتحريض من والدها ملك الموسيقى التركية الفنان اليمني صادق الجليلي حيث كان يعمل في الخفاء لحساب التي إيه أم أسوا أجهزة المخابرات التركية على الإطلاق و من بعدها المخابرات الحديدية[٢] .

(كنت اسخر منه مرارا و تكرارا و من أشعاره الجميلة التي كنت أعدها سخيفة و لاسيما أنني وقتها لا افقه شيئا في الأدبين التركي و الارمني ، بل أني كنت اسخر من مظهره الغير جميل و من نظاراته الكبيرة و مشاعره و أحاسيسه الصادقة نحوي حيث انه في إحدى المرات عرض علي الزواج أمام الطلاب جميعا فوبخته و صفعته و متلفظة عليه بأقذع و أسوا الألفاظ محتقرة إياه كما حرضت بعضا من زملائي لتلقينه درسا لن ينسى مع العلم لم يسئ الأدب معي ، لينفجر بركان الغضب الخامد في أحشائه و يصب حممه علي و يفرغ غضبه في جسدي ضربا و لكما بل الوصل الأمر إلى حد قتلي عبر مسدس سرقه من والده ضابط الشرطة السكير القاسي مرددا هذه العبارة دائما (لماذا تكرهوني ؟ لماذا تكرهوني ؟ إنا طيب جدا مع جميع الناس أخيارهم و أشرارهم لماذا

[٢] لقب إشتهرت به المخابرات اليمنية في العهد الشيوعي (١٩٦٩-١٩٩٤م) (المؤلف) .

تكرهـــوني ؟) قبـــل أن يتـــدخل زوجـــي إيـــاد الجليلـــي لإنقـــاذي و لكـــن بعـــد أصـــيب بجـــروح فـــي ذراعـــه ، و هنـــا أدركـــت الخطـــاء الـــذي اقترفتـــه بحقـــه و لاســـيما بعـــد قتـــل بطريقـــة بشـــعة علـــى يـــد والدي الذي لم يرحم أصابته بمرض الربو الرئوي)

ولـــدت وفـــاء الجليلـــي أو ويفـــا كمـــا كـــان يناديهـــا رفيقهـــا فـــي المدرســـة الابتدائيـــة فتـــى الشاشـــة اليمنيـــة فـــارس الشـــيباني فـــي ال ١٢ مـــن يونيـــو عـــام ١٩٨٠م فـــي مدينـــة عـــدن عاصـــمة الجمهوريـــة اليمنيـــة لتكـــون الابنـــة الثانيـــة لملـــك الموســـيقى التركيـــة الفنـــان صـــــادق الجليلـــــي (١٩٣٧ – ٢٠١٠م) و زوجتـــــه الثانيـــــة الفنانـــة نفيســـة الـــوزان المعروفـــة لـــدى الأتـــراك بنفيســـة اتاســـي بعـــد أختهـــا الكبيـــرة المحاميـــة جنـــان الجليلـــي و شـــقيقها المهنـــدس المعمـــاري العبقـــري عـــارف الجليلـــي و الأخـــت الكبيـــرة للفنانـــة خديجـــة الجليلـــي و الطبيبـــة النفســـية أروى الجليلـــي التـــي كانـــت تحـــبهم و إخوتهـــا الكبـــار مـــن الزوجـــة الأولـــى حبـــا جمـــا دون تفريـــق بيـــنهم كمـــا هـــي عادتهـــا المحبـــة و التســـامح مـــع النـــاس مـــن كافـــة الأجنـــاس و الأعـــراق و الأديـــان ، صـــغيرهم و كبيـــرهم ، جيـــدهم و ســـيئهم ، خيـــرهم و شـــرهم علـــى حـــد ســـواء و هـــذا جعلهـــا عرضـــة للنقـــد الجـــارح و القـــذف العلنـــي مـــن كافـــة النـــاس و لاســـيما الصـــحفيين ســـواء كـــانوا اليمنيـــين مـــنهم أم العـــرب أم الأجانـــب

لدرجة أن احدهم وصفها باللفظ بالفنانة القذرة أو الشرشوحة في صحيفة الأهرام على اثر فيلميها جاسوس من ورق عام ١٩٩٩م و نافخات الهيج عام ٢٠٠٠م لكنها لم تكن تعير أي اهتمام بما يكتبوه بل أنها كانت تعذرهم على تصرفاتهم الخرقاء الخالية من المسئولية و البعيدة عن روح المهنة و أخلاقياتها لأنهم من وجهة نظرها مجبرين على ذلك و ألا سيتم طردهم و لن يستطيعوا أن يتكفلوا بمصاريف أولادهم و زوجاتهم لذا فهي راضية عما يكتبونه عنها بصدر رحب ، بل أنها تلقت العديد من الاهانات الجارحة من بعض الفنانين العرب و اليمنيين و الأتراك كما حدث في برنامج على مسئوليتي الذي كان يقدمه الفنان الكبير دريد لحام على قناة أم بي سي عام ٢٠٠١م عندما أهانتها الفنانة يسرا و بحضور الفنانين المصري عزت العلايلي و الكويتي فؤاد الشطي اللذان استهجنا تصرفها هذا بطريقة غير مباشرة بأنها لا تقبل أن تؤدي دورا يكون محتواه أن يوضع رأسها في حفرة كرسي المرحاض ملمحة لدورها في فيلم جاسوس من ورق و عندما حاول الفنان الكبير عزت العلايلي تعنيفها اعترضت وفاء و قالت له (لا يا أستاذ عزت ، فالأستاذة يسرا محقة فيما تقول ، ما كان علي أن اقبل هكذا دور لكني اعتقد أن الفنان

الحقيقي يجب أن يبرع و يتقن الدور المسنود إليه حتى و لو كان مهينا له كما فعل أستاذنا علي المريسي في فيلمه الخيط الرفيع و الفنان الكبير فريد شوقي في فيلم بالوالدين إحسانا ، هذا ما كنت اعتقده) ، بل أنها اعتزلت الفن للمرة الأولى عام ٢٠٠١م تلبية لرغبة ابنها الأوسط ماجد و قررت العودة إليه بطلب منه قبيل وفاته بأسبوع على يديها في يونيو عام ٢٠٠٤م و التي كانت تحبه و أشقائه غسان و صفوان و نجلاء حبا جما على حد سواء على الرغم من انه ابن ضرتها الثانية و صديقتها إيمان شاكر و التي تزوجها زوجها إياد بطلب من زوجته الأولى عام ١٩٩٣م حتى لا تظل وحيدة في منزلها بإسطنبول بعد وفاة والديها في حادث سيارة و تعيش معها في منزلها بتعز و قد توفيت بمرض الربو عام ٢٠٠٢م و هو نفس المرض الذي أصاب ماجد منذ طفولته و أدى إلى وفاته المأساوية في مستشفى الرشيد الحكومي في التاريخ السالف الذكر و الذي كان موجعا لقلب وفاء كثيرا و التي حاولت إنقاذه مرارا و تكرارا أمام إهمال شبه متعمد من القائمين على واحد من أفضل مستشفيات عدن من أطباء و ممرضين و أخرها في غرفة العناية المركزة بعد خروجه من غرفة العمليات عندما عجز الأطباء و الممرضين المتواجدين هناك

من إنقاذه بعدما انهالوا عليه بوابل من الصدمات الكهربائية و ابر الأنسولين دون تبصر و كاد أن يخسروه لولا تدخلها أما يائسة تحاول إنقاذ ابنها حيث ظلت مدة ساعة كاملة تضغط على صدره و تسيل دموعها عليها راجية منه و من الله و رسوله و أوليائه الصالحين أن يعيش في مشهد بطولي رهيب أذهل جميع من كان في الغرفة و خارجها بمن فيهم زوجها إياد و بعد خمس دقائق عادت له الحياة مجددا و لكن لمدة أسبوع فقط كما ذكرنا آنفا حيث ظلت على اثر وفاته و لمدة شهر دون أن تتكلم حزنا عليه نفس الشئ تكرر على اثر اغتيال والدها في تركيا عام ٢٠١٠م ، كان قلبها غارقا في التسامح حتى أخمص قدميها مع الجميع دون استثناء سواء كان الجيران أم زملائها الفنانين اليمنيين و العرب و الأجانب و أولادها و زوجها و أصدقائها حتى مع والديها مؤمنة بالرأي القائل لا تغضب من أي شئ تافها كان أم مهما لأنه سيؤدي إلى تدمير صحتك و محبتك للناس و أخلاقك التي تربيت عليها منذ الصغر و عندما كانت ترى الخطأ أمامهم كانت تنبه صاحبه بمنتهى الأدب و الخجل الشديدين كما حدث مع شقيقتها خديجة و والدها في احد المواقف أمام والدها الذي صفع الأخيرة بشدة و تحملت وفاء الضرب الذي انهال

عليهـــا عوضـــا عنـــه (أبـــي ، أختـــي ، أنـــا أحبكمـــا جـــدا و لا اســـتطيع العـــيش مـــن دونكمـــا و بـــالأخص أنـــت يـــا أبـــي لأنـــك دائمـــا لا تنهـــال علينـــا بالضـــرب و الصـــفع حتـــى و لـــو أســـانا إليـــك و قلبـــك يتســـع للجميـــع و إذا عاقبـــت فعقابـــا مدروســـا ، أمـــا أنـــت يـــا خديجـــة يـــا قـــرة عينـــي يـــا اعـــز مـــن روحـــي لأنـــك تحتـــرمين والـــدي و لا تســـيئين الأدب معـــه ، لـــذا الـــذي حـــدث الآن أمـــامي آثـــار خـــوفي عليكمـــا بـــان يـــدخل الغضـــب إلـــى جســـديكما و يجعلكمـــا تنســـيا كـــل شـــئ جميـــل و أصـــيل بينكمـــا ، لـــذا أتوســـل إليكمـــا حبـــا بـــالله بـــان تنســـيا مـــا حـــدث إلـــى الأبـــد ، اهـــئ اهـــئ اهـــئ) حتـــى عنـــدما قامـــت الثـــورة الشـــبابية اليمنيـــة فـــي شـــهر مـــارس ٢٠١١م اتســـمت بموقـــف غريـــب آثـــار اســـتهجان الجميـــع فـــي بلـــدها لحظتهـــا عنـــدما اســـتمرت تـــدرس الطـــلاب عـــزف الكمـــان رغـــم تهديـــد الإســـلاميين لهـــا و الـــذين ســـامحتهم علـــى تصـــرفهم بمـــن فـــيهم زميلهـــا فـــي الدراســـة الجامعيـــة مـــؤنس الســـامعي الـــذي كفرهـــا و اصـــدر فتـــوى بـــذلك و هـــي بـــدورها قبلـــت بفتواهـــا طائعـــة علـــى الـــرغم مـــن كانـــت تصـــرف عليـــه و عائلتـــه ســـرا و لاســـيما قـــد قـــررت عـــام ٢٠١٠م اعتـــزال التمثيـــل لأنهـــا لـــم يعـــد لـــديها رغبـــة فـــي ممارســـة الفـــن بعـــدما قتـــل والـــدها فـــي تركيـــا مـــن نفـــس العـــام و كـــان طلابهـــا ذكـــورا و إناثـــا مؤيـــدين للنظـــام الحـــاكم الـــذي أســـا

إليها كثيرا على اثر فيلم نافخات الهيج و معارضين له على حد سواء و في نفس الوقت كانت تقدم الطعام و الدواء للثائرين المعتصمين و الجرحى في ساحة قوس النصر في حوض الأشراف بتعز و عندما سألوها هل هي مع الثورة أم مع النظام الحاكم أجابتهما إجابة غريبة تدل على مدى براءتها المتسامحة (أنا مع الاثنين ، فكلاهما يمنيين أولا و بشر ثانيا و في كل واحد منهم جانب طيب ثالثا ، و كانت بأموالها الخاصة من عائدات الترجمة و التمثيل تخصص جزءا منها لمساعدة الفقراء و العاطلين عن العمل في أنحاء اليمن عبر إنشاء العديد من المشاريع العملية المبتكرة و الشركات الصغيرة التي تتناسب تماما مع تخصصاتهم الجامعية كشركات الاستشارات التاريخية و الجغرافية على سبيل المثال و كانت تنفق عليهم في السر دون أن يعرف احد من الناس من المتبرع السخي هذا و الذي سبروا غوره على اثر مقتلها على يد ضباط الشرطة و هم يقتحمون مدرستها لتعليم عزف الكمان في بير باشا بتعز في ال ٢٣ من مارس عام ٢٠١١م بعدما افرغوا رصاصات رشاشاتهم على جسدها الصغير المثقل بالهموم دون رحمة أو شفقة لمجرد أنها طلبت منهم أن يعرضوا عليها مذكرة الاعتقال بحق من واحد طلابها المنظم

للثـورة و الـذي خبأتـه و أنكـرت وجـوده فـي فصـلها بتاتـا لينـدلع غضـبا عارمـا اجتـاح داخـل أرجـاء المـدن اليمنيـة و خارجهـا أجبـرت تحـت هـدير هتافـات الثـوار السـلمية الـذين تحـدوا رصـاص البنـادق بصـدور عاريـة علـي عبـد الله صـالح علـى التنحـي مـن السـلطة مجبـرا فـي ال ٢٩ مـن مـارس ٢٠١١م و هـم يرفعـون صـورة وفـاء الجليلـي بأسـمى آيـات التبجيـل و التقـديس قديسـة جليلـة تضـيء طريـق الإيمـان لمـن غاصـوا فـي ديـاجير الجهـل و الظـلام و لكـن بعـد خـراب البصـرة و خلوهـا مـن كـل شـئ حـي فيهـا و كـم هائـل مـن الإسـاءات و الاهانـات التـي طالـت جسـدها و شـرفها و سـمعتها دون هـوادة أو رحمـة اسـتقبلتهم بصـدر رحـب ملـئ بالتسـامح و لا يعـرف للحقـد موطنـا فيه .

الكادح الرابع

راتب الشايب

(١٩٦٠ – ٢٠٠٨ م)

والد شقيقته الصغيرة

غالبا ما تشتكي كثير من الفتيات في العالم الإسلامي من تسلط أشقائها الذكور كبارا كانوا أم صغارا عليهم نتيجة التربية التقليدية التي تعطي للذكر مكانة أهم من الأنثى ، لكن راتب الشايب المحامي السوري الحمصي المولد الثائر خالف هذه التوقعات الذي أحب أخته الصغيرة حبا جما منذ أن يحتضنها و هي رضيعة و يجهز الرضاعة لترضع منه و يغير لها ثيابها وحفاظاتها و أغدق عليها بحرا من حنانه الجارف الذي فاق ما لدى والديه اللذان إضطهدوها كثيرا و لاسيما أنهم حاولوا منعها من إكمال دراستها و تزويجها من شخص يفوقها في السن بحوالي ٢٠ سنة لولا وقوفه لهما بالمرصاد قائلا :

(أبي ، أمي ، أنتما والداي و علي طاعتكما طاعة عمياء ، لكن لا استطيع أن أقف مكتوف الأيدي و أتفرج عليكما و أنتما تقومان بذبحها أمامي بهذه الطريقة البشعة و تحرماها من تعليمها و تجبراها على الزواج من رجل بعمر جدي حتى لو

قتلتني يا أبي ، لان هذا لا يرضيكما أصلا البتة ، لذا أتوسل إليكما بالا تقذفا بها إلى التهلكة)

و نتيجة لإصراره هذا استطاعت شقيقته روان أن تكمل دراستها و تتخرج من كلية الهندسة اختصاص هندسة معمارية و تتزوج من الرجل الذي أحبته و اختارته بملء إرادتها قبل أن يغدر بها و يتزوج عليها بعد حياة دامت بينهما مدة ٢٠ سنة و طلقت منه بمساعدة شقيقها راتب الذي كان معتقلا في سجن تدمر السيئ السمعة دون أن يمنعه ذلك من تكليف احد زملائه في المهنة ليرفع لها قضية طلاق ضده زوجها في الصيف الماضي من عام ٢٠٠٨م ، كما اوجد لها وظيفة في شركة راقية و محترمة بعدما فقد مصدر رزقها في العمل الحكومي

و ظل راتب يعتني بها أبا يحب ابنته حبا جما بعد أن تخلى أهلهما عنها و مدافعا عن سمعتها الذي حاول الناس في مدينته تشويهها بعدما أضحت مطلقة لدرجة انه اسكنها مع أولادها في بيته المتواضع بعدما كانت تتنقل بين الفنادق التقليدية الرخيصة الثمن الموجودة في حارات الشام القديمة قبيل خروجه من المعتقل مليئا بالعاهات المستديمة التي أصيب بها جراء التعذيب و القمع المستمر من قبل زبانية

النظـــام لـــه و زملائـــه و أخرهـــا مـــرض الســـرطان الـــذي ظـــل يـــنهش فـــي رأســـه حتـــى وفاتـــه عـــام ٢٠٠٩م و أمـــام ولـــديها الـــذي ظـــل يعتنـــي بهمـــا فـــي البيـــت أثنـــاء انشـــغالها بالعمـــل و أصـــيبا بالصـــدمة لمـــا حـــدث لـــه ، نفـــس الشـــيء حـــدث لامهمـــا التـــي مـــا أن رأت جثـــة أخيهـــا الكبيـــرة هامـــدة صـــنما حجريـــا لا يتحـــرك حتـــى أصـــيبت بانهيـــار عصـــبي جعلهـــا تنـــام فـــي المستشـــفى لمـــدة ثـــلاث أســـابيع دون أن تنســـاه البتـــة فـــي مخيلتهـــا الكثيـــرة النســـيان و قلبهـــا الـــذي أضـــحى جلمـــودا قاســـيا لا يعـــرف الرحمـــة مـــن شـــدة الظلـــم و القهـــر الذي عانته طوال حياتها .

الكادح الخامس

مشعل الرجيب

(١٩٨٠ – ٢٠١١م)

والد شقيقته الكبيرة

لم يخطر ببال احد أن هذا الشاب الكويتي البالغ من العمر ٣٠ سنة و لم يتزوج البتة من اجل رعاية أخته الكبيرة سلوى و ابنها الرضيع محمد ، ليبقى حتى وفاته في العام ٢٠١١م اعزبا طول عمره مما يثير الاستغراب الناس حول تصرفه المثير للانتباه لأنهم لا يعرفون الدوافع الكامنة التي دفعته لذلك و لاسيما انه اجبرها على الزواج من الشخص الذي لا تحبه و أنجبت منه طفلها الوحيد .

قد يبدو ما قلته للتو غريب و غير قابل للتصديق و لكنها الحقيقة ، فعلى الرغم أن سلوى تكبره بأربع سنوات ألا أن والدهما كان يعاملها معاملة سيئة و يحط من قدرها فلم يتوقف عن ضربها و توبيخها حتى بعد أن شبت عن الطوق مما يكشف أن العائلة كان لاتزال رهينة العادات و التقاليد القبلية البدوية السادية ضد المرأة الراسخة في المجتمع الكويتي رغم التحولات و التطورات التنموية التي شهدتها

البلاد حتى تلك اللحظة بل أورثها لابنه الصغير مشعل طفله المدلل دلالا زائدا باعتباره الذكر الوحيد في العائلة و الذي أكمل مهمة والده في إذلال شقيقته الكبيرة دون أي رحمة أو شفقة تذكر في قلبه الخال حينها من الرأفة و العطف عليها و هي تتحمل أذاه و تسلطه نحوها و لاسيما بعد وفاة والدتها لتقم بدور الأخت و الأم معا .

فواصل ما قام به سلفه من ضرب و توبيخ و فاقه قسوا و بطشا ، بل انه لم يكتف بهذا الحد ، فأقدم على منعها من مواصلة تعليمها الجامعي في كلية الطب رغم تدخل كثير من الأقرباء و الأصدقاء و شكوتها إلى الجامعة و الشرطة لثنيه عن تصرفه ذلك و لكن دون جدوى و ما زاد الطين بلة أن زوجها بصديقه جاسم الطخيم رغما عنها و هي لا تطيقه و تكرهه لأنه شاب فاسد و صعلوك و سكير و زير نساء و يصرف المال الذي يأخذه من والده النائب في البرلمان و الوزير السابق عبداللطيف الطخيم و هذا ما اكتشفه مشعل لاحقا و لكن بعد خراب البصرة و تحولها إلى ارض يباب لا زرع فيها و لا ماء و لا بشر حيث كاد أن يقتله في احد المرات لكي يجبره على الطلاق و على إثرها قبع في السجن يومين قبل تدخل أقربائه في الموضوع ، و يتم له ما أراد ليعود

إلى منزله مصطحبا سلوى الشاحبة الحزينة من شدة الضرب و الركل المستمر من قبل الزوج و علاماتها ماثلة في أرجاء جسدها الضئيل متشبثة بابنها الصغيرة الذي لم يتجاوز وقتها الخمس سنوات ليدرك مشعل فداحة ما ارتكبه بحقها فيقرر معاقبة نفسه على جرائمه الكثيرة التي اقترفها نحوها و يتولى الإنفاق عليها و ابنها و رعايتهما رعاية كاملة و يتحمل كافة أخطائه نحوها و ابنها ، بل أن سلوى ذكرت انه أخذها إلى مكان قصي مجهول و غير مأهول بالسكان و أعطاها مسدسا من نوع ٦٠ ملم طلب منها أن تنتقم منه و تطلق الرصاص عليه و تقتله لما اقترفه بحقها من انتهاكات و ظلم و جور طالها و آمالها و أحلامها التي تحطمت تحت قدميه دون رحمة لذا فهو لا يستحق منها سوى الموت و لا يجب أن ترحمه أو تشفق عليه حيث أن الأخ الحقيقي هو الذي لا يؤذي أشقائه ذكورا كانوا أم إناثا و يجب أن يحترمهم ، و على الرغم من إصراره على طلبه المستحيل هذا مرارا و تكرارا فإنها كانت ترفض و لا تجرؤ على قتل شقيقها الصغير مهما كانت الإساءات التي اقترفه بحقها و ساعتها قرر أن يصوب المسدس على رأسه فتترجاه باكية بالا يقدم على ذلك و بصعوبة أقنعته و تقذف بالمسدس إلى مياه الخليج المالحة

المتشحة بسواد النفط الذي تفجر على سواحلها خلال حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠م و هي تحتضنه و بكاؤهما الحار يختلط بوجهيهما الحزينين ، و ما زاد في استغرابها منه أن كان يقوم بكافة أعمال البيت المنزلية فيطبخ و يكنس و يكوي و يغسل الملابس و ينظف غرفتها و عندما تحاول أن تساعده كان يرفض بشدة ، إضافة إلى انه كان يصرف عليها و ولدها من مرتبه كموظف في وزارة الأشغال و يعد لها الطعام إلى حد أن يوصله إلى غرفتها و يشتري الأدوية و الملابس لها و ابنها فايز الذي أحبه كولده من صلبه دون أن يبخل عليهما بشيء البتة لدرجة أن رفض أن يتزوج رغم إلحاح شقيقته بذلك حيث كان يرد عليها بان لا يريد أن يضطهدها مرة اخرى و لاسيما انه لا يضمن ما إذا كانت التي سيتزوجها ستحترم شقيقته أم لا ، ليظل على هذه الحال إلى حين وفاته بمرض التليف الكبدي في المستشفى الأميري في صبيحة الاثنين بال ١٢ من مارس عام ٢٠١١م أمام سلوى التي انهارت صراخا و بكاء من حرقة فراقه عنها لم يوقفه احد لمدة ثلاث أسابيع قبل أن تستعيد وعيها و تدرك أن الأخوة الأصيلة بين الأشقاء ذكورا كانوا أم إناثا ستظل قوية و متينة و تسودها المحبة و السلام الكامل كافة أرجائها حتى و لو حاولت تشويهها التربية

الخاطئـــة للأهـــل و العـــادات و التقاليـــد الســـيئة ســـواء الموجـــودة في صلب المجتمع أم الوافدة عليه .

الكادح السادس

كامل الشربيني

(١٩٦٥ – ٢٠٠٥م)

والد أمه العزيزة

طوى السكون و الصمت المطبق مدينة المنصورة عاصمة محافظة الدقهلية بردائه الخفي صبيحة السبت في الثامن من أغسطس عام ٢٠٠٥م و بعد أمطار غزيرة أغرقت المدينة لمدة ثلاث أيام متواصلة ، خرج الناس في حي دار ابن لقمان عن بكرة أبيهم ليشيعوا جثمان المهندس كامل محمود الشربيني حيث توافدوا على جنازته زرافات و وحدانا بشكل مهيب لا يحدث ألا في الجنازات الرسمية مع انه ليس بوزير أو محافظ بل انه لا يعتبر مهندسا بالمعنى المفهوم فهو مجرد ميكانيكي يمتلك ورشة صغيرة لتصليح السيارات و الدراجات النارية في شارع القعقاع بن عمرو بعد أن تخرج من إحدى المعاهد المهنية و الفنية في المنصورة عام ١٩٧٧م حيث لم يكمل تعليمه فاكتفى بالشهادة الثانوية فحسب ، لكن طريقة موته الغريبة و سببها هي التي جعلتهم يتهيبونه و جنازته حيث مات و هو يصلي مائة ركعة في شرفة منزله تحت الأمطار

الغزيرة المنهمرة على جسده الضامر و وجهه الشاحب خلال فترة هطولها مدة الأيام الثلاثة السالفة ذكر .

فكامل الشربيني يحب والديه كثيرا و بالأخص والدته التي انهارت على اثر وفاة زوجها في حادث قطار على خط المنصورة – الزقازيق عام ١٩٩٦م حيث كان يعمل سائقا لأحد القطارات فيه حيث حمل المحققين مسئولية ما حدث ما أن تقرير الفحص الهندسي الصادر من الهيئة العامة للسكك الحديدية و هو معتمد لديهم اثبت أن القطار مخالف للشروط و المقاييس التي ضعتها وزارة النقل و الموصلات عند استيرادها قطارات و عربات السكك الحديدية حيث اتضح انه من النوع الرديء المنتهي الصلاحية و خال من وسائل الأمان و الوقاية من الحريق و مستورد من الهند ، كما أن الرجل قاد القطار باحترافية عالية و اشتكى إلى الهيئة من السلبيات الموجودة فيه قبل أسبوعين من الحادث المذكور و لكن لا حياة لمن تنادي ليضحى أبوه كبش الفداء رغما عنه في جريمة لم يقترفها البتة سواء من قبل الدولة أم الناس ..... فظل يرعاها حتى بعد أن تزوج و أنجب أربعة أولاد و يغدق عليها بفائق حنانه الجارف عليها لدرجة انه كان يغسل ثيابها و الأطباق و الصحون في المطبخ و ينظف

المنـــزل و يســـاعدها فـــي تبـــديل ملابســـها و يحكـــي لهـــا حكايـــة قبـــل النـــوم أبـــا عطوفـــا علـــى طفلـــه الصـــغير ممـــا أثـــار غيـــرة زوجتـــه و أشـــقائه دون أن يعرفـــوا أن حالـــة أمـــه النفســـية التـــي لـــم يســـتطع أن يجـــد لهـــا علاجـــا بعـــدما عرضـــها علـــى أعظـــم الأطبـــاء النفســـيين فـــي المنصـــورة و القـــاهرة علـــى حـــد ســـواء و لاســـيما أنهـــم تخلـــوا عنهـــا فـــي محنتهـــا العســـيرة تلـــك بقصـــد أو بغيـــر قصـــد ، إلـــى أن أتـــى يـــوم ال ٢٢ مـــن ينـــاير مـــن عـــام ٢٠٠٥م عنـــدما تركهـــا لثانيـــة ليـــرد علـــى البـــاب و قـــد كـــان ســـاعي البريـــد يعطيـــه رســـالة مـــن أخيـــه منصـــور المغتـــرب فـــي الكويـــت مـــن ســـنين ليحملهـــا إلـــى والدتـــه ليفاجـــأ و يجـــدها قـــد فارقـــت الحيـــاة خـــلال هـــذه الثانيـــة حتـــى أصـــيب بصـــدمة كبيـــرة جعلتـــه تنتابـــه حالـــة مـــن الشـــعور بالنـــدم فلـــم يعـــد يأكـــل أو يشـــرب أو ينـــام ممـــا أثـــار خـــوف زوجتـــه عليـــه و هـــو علـــى ســـجادة الصـــلاة يصـــلي مـــدة أربـــع و عشـــرين ســـاعة ممـــا جعلـــه مضـــرب المثـــل لـــدى أهـــل الحـــي دون أن يبـــالي لا بالشـــمس الحارقـــة و المطـــر الغزيـــر و البـــرد القـــارس و الحـــرارة الشـــديدة إلـــى أن فـــارق الحيـــاة فـــي الســـابع مـــن مـــارس عـــام ٢٠٠٥م فـــي مشـــهد لا يوصـــف ، و لاســـيما انـــه عاقـــب نفســـه هـــذا العقـــاب الشـــديد لمجـــرد تركـــه أمـــه لمـــدة ثانيـــة فقـــط فمـــا بالـــك بالـــذين يضـــطهدون

أبـــاءهم و أمهـــاتهم طـــوال عمـــرهم و مـــن بيـــنهم المؤلـــف و معظمهم من أم واحدة فحسب .

الكادح السابع

اميليو كالديرا

(١٩٧٠ – ٢٠٠٨م)

الأخوة لا حدود لها

اميليو كالديرا شاب فنزويلي نشيط في عمله بميناء ماركابيو و دمث الأخلاق و يحب إخوته كثيرا و بالأخص ضابط الشرطة كارلوس لأنه تولى رعايته بنفسه على اثر وفاة أبيهم في الفيضانات التي اجتاحت البلاد صيف عام ١٩٩٩م إلى أصبح ضابطا في شرطة المدينة ، و كانت العلاقة قوية بينهم قبل أن يشوبها بعض الاهتزاز و الضعف في الرابع عشر من يونيو عام ٢٠٠٠م عندما حدثت جريمة قتل لأحد موظفي الجمارك بالقرب من صوامع الغلال بالميناء و تورط اميليو فيها رغم انه برئ منها براءة الذئب من دم يعقوب ، و لكن يا فصيح لمن تصيح فلم يستجب احد لنداء براءته و اعتقلته الشرطة بعنف و قسوة أمام زوجته و أولاده و يتم التحقيق بطريقة مخالفة للإجراءات القانونية و مع ذلك يحكم عليه بالسجن مدى الحياة على الرغم مما سبق ، لكنه يقرر الهرب بعد أسبوعين من المحاكمة و يختبئ في إحدى أحياء المدينة

الفقيرة الواقعة بجبال السييرا نيفادا و يكلف شقيقه كارلوس بملاحقته دون أن يعرف من يكون إلى أن أدرك ذلك في التاسع عشر من نفس الشهر المذكور آنفا في إحدى المطاردات الليلية بالضواحي الفقيرة في يوم ممطر بغزارة على غير ما اعتادوا سكانها الذين ألفوا انفجار المجارير عليهم عوضا عن الماء عندما هجم اميليو على الأخير بمجرد اقترابه من مخبئه السري داخل مخبز قديم مهجور تركه ساكنيه منذ سنوات عدة قبل أن يتعرف عليه فيتوقف و ليدور بينهما حوار ساخن لم تطفئ جذوته برودة الأمطار المتدفقة عليهما دون أن يتأثرا بشيء منها و يتركه ليفر باحثا عن ملجأ أخر دون اللحاق به بمعية رجاله ليدرك كارلوس أن شقيقه برئ و لفقت له التهمة من قبل النيابة العامة مع سبق الإصرار أو الترصد فأصبح بين خيارين لا ثالث لهما ، فكان عليه أن يؤدي واجبه دون مجاملة أو محسوبية و يلقي القبض عليه ليسلمه إلى العدالة كما يزعمون و لو كان أخيه و إلا تعرض إلى التحقيق و المحاكمة بتهمة التواطؤ و التستر على مجرم هارب و يسجن و يفصل من عمله ، لكنه في نفس الوقت لا يستطيع القبض عليه ، فاميليو لم يكن في يوم من الأيام شقيقه الأكبر فحسب بل كان بمثابة والده الراحل الذي لم يره في حياته

منذ أن قتل في عملية سطو مسلح بمقر عمله في احد المحلات التجارية المتخصصة في بيع الحلويات بالمدينة قبل أن يولد في الرابع من مايو عام ١٩٧٩م ليرعاه و يحنو عليه بكل عطف و حنان و إخلاص فاق ما في الأبوة من حنان و عطف كبيرين ليختار الثاني و يخسر مستقبله من اجله .

و عندما وصلت الأخبار إلى مسامعه عن التحقيق مع شقيقه كارلوس ، شعر اميليو بالذنب العظيم تجاهه و عائلته الصغيرة التي لا ناقة لها و لا جمل أمام حقد الناس عليهم فسلم نفسه إلى اقرب قسم شرطة و يعترف أمام المحققين بأنه اعتدى على كارلوس حيث لا ذنب له بموضوع هروبه من ضاحية علي بلوميرا [٣]ليبرئه من التهمة و عندما حاول الأخير أن يثنيه عن تصرفه هذا فيسكته الأول :

(اسكت ، و أيد اعترافي هذا فورا ، و إلا خسرت مستقبلك كضابط شرطة نشيط)

(أهذا الذي يهمك ؟ أن أضحي بك حتى لا اخسر وظيفتي و عائلتي ؟!! لماذا ؟!!)

[٣] مطرب فنزويلي شهير من رواد الأغنية الثورية الجادة في بلاد خلال عقدي الخمسينات و الستينات من القرن العشرين (المؤلف) .

(لأنك أخي كارلوس الذي أكن لك في سويداء قلبي مشاعر الخير المتدفقة نحوك ، لذا فلا اقبل أن تتأذى و تخسر مستقبلك المهني بسببي ، لذا أوصيك أن تحافظ على وظيفتك و عائلتك فلقد تعبت من اجلهما أياما و ليالي ، فلا تقلق علي ، مفهوم يا حبيبي ؟)

(مفهوم اميليو)

لم يتوقف كارلوس عن ذرف دموعه حتى بعد أن اخذوا شقيقه الأكبر من أمامه ليضعوه في السجن حتى بعد أن خرج من قسم شرطة كورليون بلازا بصحبة زوجته و ابنه الصغير و هو يشعر بالذنب كل يوم يستلم فيه منصبا رفيعا و رتبة رفيعة على كتفه و نيشان ارفع على كل مهمة يؤديها في سلك الشرطة يقابله تعذب شقيقه الأكبر كل سنة خلف القضبان الصدئة القاسية و جدران زنزانته الرصاصية الرمادية قبل أن يقتل فيها على اثر اشتباكات بين المساجين و ضباط السجن في الخامس من أغسطس عام ٢٠٠٨م لينفجر غضبه الكامن على الجميع بمن فيهم زملائه الضباط ثم يستقيل من عمله في سلك الشرطة و يترك الانجازات التي حققها هناك ليعمل محاميا و يبدأ في التحقيق بقضية أخيه اميليو للوصول إلى الجناة الحقيقيين و الذي اتضح انه من الرجال المتنفذين في

الدولة الفنزويلية في مجال المحروقات قبل أن يطيحه هوغو شافيز من منصبه و يضعه في السجن عام ٢٠٠٩م لتكلل جهود كارلوس بالنجاح و يثار لأخيه الأكبر اميليو و يقتص من اضطهدوه في محنته مما أثار إعجاب الناس في ماركابيو خاصة و فنزويلا بمتانة الأخوة التي لا حدود لها و صلابتها بين الأخوين متحدية رغم الأزمات و المشاكل التي غرقت فيها البلاد حتى أخمص قدميها منذ استقلالها عام ١٨١٤م إلى يومنا الحاضر .

الكادحة الثامنة

ناهد أمين

(١٩٧٤ – ٢٠٠٩م)

الوفاء سر دفين عند أحبائه

يصفونها في بلدها العراق بأنها كنز الوفاء الثمين المفقود في قلوب الناس منذ سنين و لكن بعد خراب البصرة أي وفاتها في مستشفى الرشيد ببغداد بالحادي و العشرين من نوفمبر عام ٢٠٠٩م بعدما كانوا يرمونها بأقذع الألفاظ و يقذفونها بالشتائم السيئة في مدينتها الموصل التي أبصرت النور فيها في الثامن من أغسطس عام ١٩٧٤م لمجرد أنها نحس على زوجها المهندس ماجد أمين منذ أن تزوجها عام ١٩٩٠م فتارة وصفوها بالعقيمة لأنها لم تنجب له أولادا و تارة بجالبة المشاكل لأنها كانت رغما عنها تقع في مشاكل عدة فيتدخل زوجها الوفي لإنقاذها منها و من بينها قضية اغتصابها و التي أدت إلى إنجابها لولد غير شرعي مما جعلهم يطعنون في شرفها و يتهمونها بالزنا فيدافع عنها ماجد بكل ما أوتي من قوة عنها أمام الجميع و لاسيما أبناء الديانة اليهودية التي هو و زوجته يعتنقانها و هذا ما دفع الناس إلى وصف ناهد

بالشريرة و عميلة للصهاينة لأنها يهودية الديانة مع العلم أنها تكره إسرائيل و لا تحب الهجرة إليه و لكن للأسف لم تعفها مشاعرها الصادقة تلك من التهمة ..... و غيرها من التهم و الانتقادات اللاذعة و السمجة التي لم تقضي على زواجهما السعيد المنبثق من حبهما الصادق فيما بينهما منذ التقيا ببعضهما في مدرسة الشواف الثانوية يتبادلان رسائل الحب و العشق عن طريق الحمام الزاجل باعتبار ماجد من هواة تربية الحمام منذ صغره و كل منهما كان مخلصا و وفيا للأخر لدرجة العبادة و حتى أخر رمق في حياتهما يساندان بعضهما البعض في مواجهة مصاعب الحياة و نوائبها التي زادت من حبهما قوة و منعه لا يهزها الريح العاتي و لا الإعصار الهادر و لا هراء الناس الذي يضحى في نظرهم هباء منثورا ، ليتوج حبهم بما جرى في الخامس من نوفمبر من العام السالف الذكر حيث تعرض زوجها إلى حادث إطلاق نار و كان ينزف بشدة لان قلبه ضعيف جدا و لا يستطيع التحمل كثيرا و هي في حالة يرثى لها ليس لديه القدرة على مساعدته قبل أن يخبرها الطبيب بأنه بحاجة إلى عملية زرع قلب حتى يتمكن من العيش و في أسرع وقت و إلا فقد المريض حياته بحال ما إذا تأخروا ، فلم تطق صبرا و قررت

أن تبادر بسرعة في سبيل ذلك و أقدمت على قرار خطير أذهل حتى الطبيب نفسه الذي رفض الفكرة من أساسها قبل أن تقنعه بها بان تتبرع بقلبها لزوجها :

(زوجي أحق بان يعيش و يتمتع بحياته بعيدا عن المشاكل و النكبات التي أنا كنت السبب فيها و من بينها عدم ارتزاقه بالأولاد)

و هذا الكلام لم يكن السبب الحقيقي لقرارها المصيري بالمرة ، فهي تعرف أن زوجها الوفي المخلص طوال حياته لم يحملها مسئولية ما حدث له من مشاكل و مصائب و اعتبرها بريئة منها براءة الذئب من دم يعقوب لكن إخلاصها و حبها الشديد له دفعها أن تنفذ قرارها الخطير هذا و على مسئوليتها و دون علم زوجها التي زارته و هو نائم في غرفة العناية المركزة قبل يومين من موعد العملية و هي تذرف دموعها أمامه و تمسح بيدها وجه الصبوح :

(سامحني يا عزيزي ، سامحني لأني سأكذب عليك و اكتم عنك قرار تبرعي بقلبي لك ، لأني اعلم بأنك سترفض ، لكني ارفض أن تموت أمامي و بيدي فرصة نجاتك الوحيدة ، فلا تغضب مني رجاءا)

و فعلا نقل قلبها الرقيق إلى جسده و تنجح العملية و يتم إنقاذه من الموت أمام دهشة الطبيب المعالج الذي أجراها و الناس في بغداد و الموصل الذي هاجموها مرارا و تكرارا و زوجها الذي أصيب بصدمة حزن شديدة بعدما علم بهوية المتبرع قبل أن يتجاوزها بفترة زمنية غير قصيرة أمام ما حدث في ذلك اليوم الشتائي القارس لم تعهده بغداد من قبل بعد دخول القوات الأمريكية إليها عام ٢٠٠٣م دون أن يعرفوا باستثناء زوجها بان السر الحقيقي للحب هو التضحية الصادقة في سبيل من تحب .

الكادح التاسع

عادل الشميري

(١٩٠٢ – ١٩٧٢م)

المخلص لوطنه و رفاقه

لم يكن له دور سوى انه كان يحب وطنه طفلا رضيعا يحب أمه حبا جما و يعشق حليبها الراوي للظمآن في صحراء الوحدة و دون مقابل ، فساهم في إنشاء أول سيرك في عدن عام ١٩٥٨م و أنتج أول عمل كرتوني اسمه (البطة البرية) عام ١٩٥٩م و حاز على الميدالية الذهبية في الجمباز بأولمبياد روما عام ١٩٦٠م ضمن بعثة اليمن الاتحادية الرياضية قبيل الاستقلال منذ مشاركتها في اولمبياد لندن ١٩٤٨م على اثر تأسيسها عام ١٩٣٨م و هي الميدالية الذهبية الرابعة في رياضة الجمباز خلال مشاركاته في الألعاب الاولمبية منذ اولمبياد هلسنكي عام ١٩٥٢م و التي أهداها لوطنه اليمن ..... الخ .

لكن أعظم انجازاته هو ما قام به خلال الحرب اليمنية – السعودية (١٩٦٨ – ١٩٧٣م) عندما كان قائدا لإحدى الكتائب العسكرية الخاصة في الجيش اليمني التي تمكنت

من احتلال مدينة نجران و استعادتها من السعوديين الذين تركوها بعد معركتين فقط عام ١٩٧٢م حيث ضحى بنفسه من اجل كتيبته أو أولاده كما كان يصفهم خلال الإشراف على تدريبهم العسكري التي حررها من الطوق الذي فرضه عليها حفنة من الجنود اليمنيين الذين يعملون في الجيش السعودي كمرتزقة فيه لساعة كاملة و هم بصدد حماية مقر القيادة العليا في المدينة من أي محاولة اقتحام منهم ، و لبراعته في القنص و التسلل الليلي و التمويه الناري و هو احد الابتكارات العسكرية اليمنية على مر العصور كالطابور الخامس و الكشافات و الفخ المرحلي و تتمثل طريقتها بإطلاق النار في عدة مواقع ليلا و بعيدا عن الأنظار بسرعة رهيبة و قد استفاد من مواهبه و مهاراته الخلاقة في حقلي الرماية و الجمباز على الرغم من انه حينها كان يعاني من مرض الربو الرئوي إضافة إلى الرصاص الذي اخترق بطنه و استطاع أن يفتح ثغرة فيه لكي يمر جنوده منه و يقتحموا المقر و يعتقلوا قائده و رفعوا العلم اليمني عليه ، و عندما عادوا ليبشروا قائدهم بالنبأ السار ليفجعوا برؤيتهم له ممددا على الأرض ميتا و قد فارق الحياة حيث ساءت حالته الصحية و لان دواء الربو لم يكن بحوزته و ظل ينزف كثيرا حتى اختنق

و مات على إثرها فداء للوطن الذي أحبه منذ نعومة أظافره أكثر من أولاده و قبيلته لا ابتغاء مرضاة الدولة أو مصلحة شخصية حيث لم يكرم بميدالية ذهبية أو نيشان رفيع تقديرا لعمله البطولي و عائلته لم تحظى بعطف الدولة بعد و ظلت تعاني الفقر و البطالة و يحب أولاد الوطن سواء الذين يحبونها أم يؤذونها لان كالأم قلبها كبير و يتسع للجميع دون استثناء .

الكادح العاشر

فارس سماتي

(١٩٧٤- ٢٠٠٤م)

بحر الحب و الخير الغزير لأحبائه

هكذا وصف الفنان اليمني الكبير علي المريسي تلميذه و رائد السينما الانتحارية في تركيا لان معظم أبطال أفلامه ينتحرون في النهاية و مخترع سيارة بارس أو الفهد المحلية الصنع على اثر فيلمه (قبضة الفهد) عام ١٩٩٠م و مخترع شخصية عابد الاودمشلي الشهيرة الفتوة الشاب بطل فيلمه الشهير (درع الشمس الذهبي) عام ١٩٩٢م الذي حاز على جائزة الدب الذهبي من نفس العام و مخترع شخصية الآلي مازنجر عام ١٩٨٦م و أيضا شخصيتي مراد علمدار و ناصر بيرو فارس سماتي خلال أربعينية تأبينه في جامعة أزمير عام ٢٠٠٤م المشتعلة وقتها بين الطلاب المتظاهرين و قوات الأمن و الشرطة على اثر مقتله على يد الأخيرة في نفس العام قبل أن يتدخل الجيش في الأمر و يفرض حالة الأحكام العرفية في المدينة الثائرة عليهم منذ ثلاثة أسابيع على اندلاعها و مقتل العديد من الطلبة الحزينين على فراق والدهم

أبو الشباب الأتراك كما لقبه مثله الأعلى في الفن ملك الموسيقى التركية الفنان اليمني الأصل صادق الجليلي لسعة صدره الحنون و طيبة قلبه التي يكنها لمن يحبهم بلا حدود بمن فيهم زوجته الراحلة بيانكا سكلفارو (١٩٧٥ – ١٩٩٣م) التي التقاها في باهيا بلانكا خلال عمل والده هناك كقنصل هناك و تزوجها و كان كلاهما يدرس في المدرسة الإعدادية عام ١٩٨٦م و أولاده الثلاثة منها مجد و سلطانة و موج و هذه الأخيرة لها قصة عجيبة معه أو بالأحرى سيرة حياته هي أكثر عجبا من قصة زوجته الثالثة و ابنة عمته أسيل و التي يكتشف أنها زوجته الراحلة بيانكا و لكن بعد أن استعادت ذاكرتها بعد تعرضها لحادث اختطاف من قبل عصابة كان والدها بالتبني كامل مديون لها بالكامل حتى أخمص قدميه في يونيو ٢٠٠٣م .

ولد فارس مراد هارون سماتي في صبيحة ال ١٢ من يوليو عام ١٩٧٤م بمدينة أزمير الساحلية عروس بحر ايجة و التي كان يلقبها بالزهرة الجميلة الذابلة المتجددة و الناجية من كل كارثة تصيبها و تنهض من قبرها مرة أخرى و لا تعرف للموت طريقا أمامها البتة و كان يعتبرها إحدى أجمل شيئين في العالم بالنسبة له هي و القطار ، ينحدر من أسرة جزائرية الأصل تعود

أرومتها إلى بلاد القبائل و لاسيما إلى مدينة تيزي اوزو الجبلية و هي تعني الصفصاف باللغة الامازيغية ، لم يفرح والديه كثيرا به البتة كفرحهم بأخيه الصغير ماهر الذي أتى بعده بسنتين عكس جده لأبيه هارون الذي لم تسع الدنيا له من شدة فرحه الشديد لقدومه إليها مما يكشف أول خيط من الخيوط الغامضة لقصة حياته العجيبة و هو انه ليس ابنهما الحقيقي بل ابن عمته السيدة حفيظة سماتي و زوجها كامل إبراهيم سماتي الذي باعه للسيد هارون الذي كان من أهم زعماء و آغوات المافيا في إقليم بحر ايجة و زعيمها الوحيد بلا منازع في أزمير و ما حولها مقابل مبلغ من المال لتسديد دين القمار الذي في عنقه عام ١٩٧٧م و قد وصفه بأنه دبوس الوادي للدلالة على السخرية و التعبير عن حقيقته بأنه شخص مستهتر و لا يريد تحمل مسئولية عائلة بأكملها إضافة إلى انه يريد أن يحصل على النقود دون عمل أو جهد كغيره من سكان أورلا عديمي النفع كما يصنفهم .

أما والده بالتبني شقيق أمه الحقيقية حفيظة أو الخروف المنتوف كما كان يلقبه السيد مراد فكان دبلوماسيا رفيعا في الخارجية التركية ترقى في المناصب التي انيطت إليه خلال فترة عمله بكافة نادرة رغم انه لم يجن منها شيئا من الناحية

المادية و الاعتبارية حيث سرعان ما توفي والده السيد هارون و ورث أملاكه حتى قدم استقالته من عمله في وزارة الخارجية دون تأخير و يتميز بتقلب مزاجه في كل دقيقة دون تفكير و لاسيما انه خسر جزءا كبيرا من ثروته لصالح زوجته بسبب خياناته العاطفية ، أما والدته بالتبني ليليان اوتشار أو ليليان سماتي فقد كانت فنانة تشكيلية محترفة مشهورة عرضت لوحاتها في لندن و باريس و روما و نيويورك قبل أن تحبط بفشلها الذريع في اجتذاب أبناء بلدها إلى فنها التربيعي المميز و تنشغل بما امتلكته من أموال و عقارات من بينها فندق سايروس في أورلا التي وضع فارس بفضل خططه الإدارية المبتكرة ضمن أفضل عشرة فنادق في محافظة أزمير عام ١٩٩٥م .

المهم أن صاحبنا دخل المدرسة في سن مبكرة أي في سن الثالثة من عمره مما يدل على ذكائه و عبقريته الخارقة منذ نعومة أظافره و التي أذهلت أقرانه و أهله أيضا حيث حفظ القران الكريم غيبا و هو في سن الثانية و لاسيما انه من المعتاد أن الشباب التركي لا يهتمون كثيرا بأمور دينهم أو حتى حفظ القران الكريم بالرغم من أنهم أتى منهم أشهر حافظ و مرتلا له في العالم الإسلامي ألا و هو محمد علي

هليسي ابن ال١٨ ربيعا و الذي استطاع أن يتلوا أمام جمع غفير من علماء المسلمين من كافة أرجاء المعمورة حوالي ٦٦٦ أية من محكم آياته عام ١٩٨٥م إضافة ألا انه اصدر ديوانين شعريين و هو في الصف الثاني الابتدائي الأول (ربيع الرياح التائهة) و الثاني (قوانين مرتجلة) و كلاهما عند صدورهما عام ١٩٧٩م احدثا ضجة مدوية في الساحة الأدبية في تركيا المتفاجئة بظهور نابغة صغير في الشعر يقرضه و يؤلف أبياتا شعرية خالية من أية أخطاء نحوية أو إملائية إضافة إلى جراءتها في تناول المواضيع العاطفية و السياسية و الاجتماعية التي تمس الشباب التركي وقتها لدرجة أن الشاعر الكبير نجيب فاضل اعتبره مشروع ناظم حكمت جديد على الرغم من انه كان متأثرا بمراد الجرو (غاندي تركيا) (١٩٢٩ – ١٩٦٨م) أكثر منه بل أن مثله الأعلى ملك الموسيقى التركية الفنان اليمني صادق الجليلي اخذ قصيدته (نجوم الظهر المتألقة) و حولها إلى أغنية باللغتين التركية و الاسبانية عندما كان في منفاه ببيونس آيرس عاصمة الأرجنتين عام ١٩٨٦م قبل أن تعتقله الشرطة و تقمعه بشدة ليتعرف منذ نعومة أظفاره على عالمهم القذر حيث كان يرى أن الشرطي إنسان مثل غيره من البشر في داخله الخير و الشر

معا و له ايجابيات و سلبيات ألا أن الإطار الذي يعمل فيه و المؤسسات التي تعلم منها أصول العمل الشرطي البوليسي هو الذي يجعله وحشا كاسرا في وجه الجميع ملؤه الحقد و الشك و الاحتقار للآخرين و تنفيذ الأوامر العسكرية و لو على حساب القانون و هذا ما كان يلاحظه على رفيق طفولته الروماني الأصل معين اليسكو الذي أصبح شرطيا بالواسطة عن طريق أبيه بعدما نجح في الثانوية بصعوبة دون أن يؤهله المعدل الذي أتى به لدخول الجامعة و لاسيما أن الأخير تورط في قتل زوجته الأولى بيانكا عام ١٩٩٣م مما دفعه إلى قتله بعد سنتين من الحادثة بعدما ضربه ضربا مبرحا ساعتها مع انه ثبت له فيما بعد أن امجد نجل قائد المنطقة العسكرية الغربية في الجيش التركي اليمني الأصل طلال البكر المعروف عند خصومه بملك أورلا حيث لا يزال سكانها خاضعين لسطوته و جبروته دون أن يتجرؤوا على شتمه حتى لا يكون مصيرهم الموت كما حدث لفارس و عائلته عامي ٢٠٠٤م و ٢٠٠٥م بالتعاون مع صديقه المخلص الطيب و شقيق معين صافي بعدما الأول كاد أن يقتل امجد لخطفه زوجتيه أسيل و موج ، لكن لان قلبه لا يعرف الحقد ضد احد و لا سيما الذين اعتدوا عليه و أحبائه لم يستطع أن ينتقم منه و لاسيما

بعد أن عرف أن معين أحبها كثيرا و من طرف واحد دون أن يفصح له و غيره عن حقيقة مشاعره الجياشة نحوها ، لم ينس فارس ذلك اليوم عند مغارة الغرباء شرق ساحل اورلا و هو يوجه مسدسه نحوه ثم ما يلبث أن يقذف به ناحية الشاطئ ماسكا برأسه باكيا متمتما دون توقف (لماذا يا معين لماذا ؟! لما فعلت ذلك ؟!! لما قتلتها ؟!!! و لما لم تخبرني بأنك تحبها ؟!!!! لو كنت أخبرتني يا صديقي بمدى حبك الجارف نحوها لطلقتها حتى تتزوجها) .

حتى عندما تعرض للازمات و النكبات الكبيرة وكان أخرها سحب الجنسية التركية منه عام ٢٠٠٢م إضافة إلى تجريده من شركته للإنتاج السينمائي و مصرفه الخاص بنك التمويل الفني الذي كان يمنح قروضا و تسهيلات مالية بشروط و فوائد ميسرة لأي شخص يعمل في حقل الفنون التشكيلية و السينما و المسرح و الرقص الاستعراضي و البالية قبل ستة أشهر ، و تعرضه للغدر من اقرب الناس إليه و من أحبائه و لاسيما عائلته و زوجته الثانية إيسيل و زملائه من أساتذة الجامعة فانه لم يتخل عن طيبته الجامحة و تسامحه المفرط معهم لقناعة منه اعتاد عليها منذ صغره و تستند على قاعدة أصبحت ركنا أساسيا في شخصيته كما تحدث عنها لطلابه

في كلية الإعلام بجامعة اسطنبول (الحقد مهما كان مبرره خيرا أم شرا فانه لا يحرق سوى صاحبه ، لذا لا تحقد على احد حتى و لو كان الناس أو الحق معك) .

كما انه كان يمقت العنصرية بكافة أشكالها و ألوانها و لاسيما التي كانت تفتعلها الدولة التركية منذ عهد مؤسسها و راسم سياستها الحالية مصطفى كمال أتاتورك (٠٠٠ – ١٩٣٨م) فكان يهتم بذكر الأقليات العرقية و الدينية و المذهبية ببلده تركيا في أفلامه و مسلسلاته و مسرحياته الجريئة اللائي أثرن ضجة محلية و عالمية على حد سواء و تعبق أغانيه العذبة عذوبة نهر الفرات بالتراث العراقي و اليمني و الجزائري و الارمني و الكردي و الشركسي و تصدح باللغات العربية و الأشورية و القحطانية و الامازيغية و التركية و الكردية و الارمنية و الشركسية لدرجة انه أسس ما بات يعرف بموسيقى الرأي التركي عام ١٩٨٥م و هو فن جزائري الأصل موطنه الأصلي ولاية وهران و لكن باللغة التركية ، كما جاهر مرارا و تكرارا بتغيير اسم بلده من تركيا إلى اوراسيا لتشمل بين حناياها كافة القوميات شريطة أن تكون اللغة التركية هي اللغة الرسمية باعتبارها اللغة التي اعتاد عليها سكان البلد منذ العهد العثماني دون أن تلغي بقية اللغات

العرقية الأخرى و يحق لأصحابها التحدث بها بحرية كلغات أهلية ، إضافة إلى رواياته و أشعاره المكتوبة باللغة الاسبانية التي تعلمها في الأرجنتين على يد بيانكا و بتوقيع اسمه المستعار ((الصفصاف)) و الذي اعتقد كثيرون بعدما انكشف سره لهم بعد فوزه بجائزة نوبل للآداب انه عمد لذلك اتقاء لغضب السلطات الرسمية في بلده و الحقيقة انه خوفا من سخرية الناس منه عندما يعلموا بحقيقة كاتبهم الشهير التي جعلت رواياته الأدب التركي أدبا عالميا ينافس نظرائه من الآداب العالمية .

أما فيما يتعلق بعائلته و لاسيما ولداه طلال و عبلة و أحفاده نادر و ميره و خليل و بلال و زوجاته بيانكا و نهال و أسيل و موج فأغدق عليهم انهارا من حبه الطاغي نحوهم تسيل من قلبه الحنون بلا استثناء يذكر و تحديدا أسيل التي رغم أنها آذته كثيرا بخوف أو أنانية استطاع بحنانه و حبه أن يحتويها و يحولها إلى امرأة طيبة الملائكة في مساعدتها لبني ادم و لا ننسى انه عندما ضربها و ضرتها موج ضربا مبرحا في تلك المرة لأنها كذبت عليه في مسالة فصله من الجامعة بالتواطؤ مع زميلته الدكتورة آمال اقطاش أستاذة علم التشريح في كلية الطب بجامعة الحضارات بإسطنبول حتى أصيبتا بإغماء شديد

لـــم تســـتطيعا علـــى إثرهـــا الحـــراك حتـــى أخـــذهما إلـــى المستشـــفى كـــالمجنون و ســـلم نفســـه إلـــى الشـــرطة متهمـــا نفســـه بالاعتـــداء بالضـــرب المبـــرح عليهمـــا و مـــع أن كلتاهمـــا بعـــد شـــفائهما أنكرتـــا و نفتـــا نفيـــا قاطعـــا انـــه اعتـــدى عليهمـــا ألا انـــه أصـــر علـــى معاقبـــة نفســـه لمـــا اقترفـــه بحقهمـــا فطلـــب منهمـــا أن تضـــرباه بهـــذين القضـــيبين المجـــوفين بشـــدة و بعـــد إلحـــاح شـــديد منـــه انهالتـــا عليـــه بالضـــرب و همـــا تبكيـــان بكـــاء مـــرا مـــرارة العلقـــم و عنـــدما ســـقط علـــى الأرض مغشـــيا عليـــه ســـارعتا إلـــى احتضـــانه و رش بشـــذرات مـــن المـــاء حتـــى يفيـــق مـــن صـــدمته و يـــداويان جروحـــه الطفيفـــة علـــى رأســـه و كتفيـــه ، بـــل أن لديـــه نظريـــة غريبـــة و فريـــدة مـــن نوعهـــا عـــن الحـــب اســـتقاها مـــن أســـتاذه علـــي المريســـي الـــذي بالتـــالي ورثهـــا عـــن الشـــاعر اليمنـــي القـــديم جميـــل بثينـــة تتمثـــل فيمـــا قالهـــا الأول لزوجتـــه الثانيـــة اليهوديـــة الديانـــة و ابنـــة مـــدير مدرســـته نهـــال بعـــدما اجبـــر علـــى تطليقهـــا مـــن قبـــل الشـــرطة لأنهـــا تزوجهـــا دون إذن وزارة الداخليـــة حيـــث تعتبـــر مـــن ديانـــة اخـــرى (اســـمعي يـــا عزيزتـــي ، احبـــك حـــب العبـــادة لأنـــك طـــاهرة و طيبـــة القلـــب ، و لـــذا ســـأظل احبـــك حتـــى و لـــو انفصـــلنا عـــن بعضـــنا الـــبعض بـــالقوة و أحـــب زوجـــك الـــذي ســـتتزوجينه و أحـــب أولادك منـــه أيضـــا) ، أمـــا فيمـــا يتعلـــق بتلاميـــذه فكـــان يحـــبهم كولديـــه و أحفـــاده و أكثـــر

، بل انه ضحى بشهرته و مناصبه من اجلهم كما حدث في حادثة المركز الجامعي للسينما في جامعة الحضارات عام ٢٠٠٣م عندما تخلى عن رئاسته بعد أن ساومته رئاسة الجامعة على ذلك من اجل أن يظل المركز منبرا حرا للإنتاج السينمائي الحر كما حدد مهمته منذ أسسه منذ ٣ سنوات إضافة إلى عدم تعديل ميثاقه الأساسي الذي ينص على حرية التعبير و الإبداع المطلق ، و عندما احتج الطلاب على استقالته هداهم و أقنعهم و قال لهم (ليس المهم أن أظل في المنصب أم لا ، مادام استقالتي ستحفظ للمركز مكانته و استقلاليته عن الجامعة و تحميه من رقابة الدولة على أفلامه و أفكار مخرجيه الحرة ، فانا موافق) و لكن كل هذا لم يشفع له عند مجتمعه المليء بالتناقضات المفتعلة و مراكز القوة في الدولة التركية من بينها المؤسسة العسكرية التي ضاقت ذرعا بأفلامه و مسلسلاته و رواياته و أغانيه الجريئة و لاسيما التي كانت تنال من زعيمهم الروحي مصطفى كمال أتاتورك و أكثر من كان يتضايق من تصرفاته الجنرال اليمني الأصل طلال البكر احد أعضاء مجلس الشورى العسكري و يعرف بملك اورلا حيث لا يجرؤ سكانه على النيل منه و عائلته الممتدة حتى ديار بكر و بغداد و لو بالمزاح البريء حتى لا

يكـون مصـيره القتـل و هـذا مـا حـدث لفـارس سـماتي الـذي قتـل علـى يـد الشـرطة فـي وضـح النهـار علـى إحـدى الشـوارع الرئيسـية فـي اسـطنبول دون أن يحـرك احـد سـاكنا عـام ٢٠٠٤م ، و لـم يكتـف بـذلك فحسـب بـل وصـل إجرامـه إلـى حـد ارتكـاب مجـزرة ليلـة زفـاف اصـغر أبنائـه راكـان البكـر عـام ٢٠٠٥م و التـي قتـل فيهـا جميـع أفـراد أسـرة فـارس بمـن فـيهم زوجتـه الأولـى و الثالثـة بيانكـا سـكلفارو أو أسـيل سـماتي و ولديـه و أزواجهمـا و أحفـاده و لـم يـنج منهـا سـوى زوجتـه الرابعـة مـوج فـي مشـهد دمـوي مرعـب لا يوصـف فـي تـاريخ هـذا البلـد الـذي شـهد العديـد مـن المجـازر و المـذابح التـي تقشـعر لـه الأبـدان باسـم الحفـاظ علـى النظـام الأتـاتوركي السـائد فيـه منـذ العـام ١٩٢٣م ، لكـن الشـباب ظلـوا أوفيـاء لمبادئـه الإنسـانية التـي ترسـخت فـي قلـوبهم و عقولهم ابد الدهر .

(النـهايـة)